القطـــط

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

القط حيوان مغرور ؛ وله العذر يا أخى والله . . ولو أن أمة من الأمم بدا لها فى عصر من العصور أن تعبد أجدادى أو أن تعتقد أن روح الله حالة فى أجسادهم لكنت حقيقاً أن أزهى وأتكبر وأتغطرس وأرفع رأسى حين أكلم الناس، وأزم بأنفى وأتبجح عليهم بما ليس عندى، وأتمدح بما ليس فى، وأكون على العموم — وباختصار — نفاجاً فياشاً إذا كنت تفهم ما أعنى

ولست أتخذ القطط ولا أحبها أو أطيقها، لأن آبائى لم يكونوا ممن عبدوها أو آمنوا بحلول روح الله فيها وإن كانوا قد عبدوا فى جاهليتهم ما هو أحط منها فى مراتب الحياة — الأصنام والحجارة — ولكنك تكفر بالحجر فتكسره وتفرغ من أمره. أما القطط فتنزو فى أمرها إلى الرشد ولكنها هى لا ترشد أبداً ولا يفارقها الغرور العظيم الذى داخلها مذ رأت نفسها معززة مكرمة — بل معبودة — بلا موجب، فالبلاء لهذا مقيم والمصيبة خالدة والعياذ بالله

ومن غرور القط أنه لا يستأنس أبداً — يسكن بيتك ويأكل طعامك برضاك أو على الرغم منك، ومع ذلك لا يكون معك إلا على حرف ... تمسح له شعره فيثنى أرجله تحته ويرخى جفنيه ويروح يزوم أو «يقرأ» كما يقول العوام فكأنك تستلم حجراً مقدساً من فرط ما يكون من انصراف هذا الحيوان المتكبر عنك، وتدغدغه فلا يعنى بأن ينظر إليك ليرى من أنت — أغريب أم صاحبه الذى يطعمه ويؤويه — بل ينحى عليك بأظافر يده وبفمه فى آن معاً. وتقدم له اللقمة من الخبز فينظر إليها شزراً ويعرض عنها محتقراً لها ويحول رأسه عنك بكبر دونه كل كبر وترفع لا يطاق حتى لكأنك تلغو فى حضرة البابا .. فاذا كان ما تعرضه عليه لحماً أو سمكاً أهوى عليه بأسنانه وهو معبس متجهم وانتزعه منك كأنما أنت تدنسه بلمسه أو حمله. ولا يكون معك أبداً إلا متحرزاً متوثباً متوقعاً منك الغدر ومتهيئاً لمباغتتك بالخيانة، وليس أطيق منه ولا أغلظ كبداً. وما أظن بالقارئ إلا أنه رأى ما يصنع القط بالفار وكيف يمسكه بين يديه حتى يكاد يميته من الفزع ثم يطلقه ويقصر عنه فيقف الفار المسكين جامداً لا يتحرك ولا يكاد يصدق أنه حر وأن فى وسعه أن يذهب ويجرى. والقط ساكت لا يمد إليه يداً ولا يبرز مخلباً فيطمئن الفار ويشرع فى الهرب وهو يتلفت حتى إذا وثق أنه آمن وثب عليه القط وهو يضحك فى سره وغرس فى جنبيه مخالبه وراح يشكه بها شكاً يكون خفيفاً تارة وثقيلاً أخرى ثم يكف عنه مرة أخرى — وعينه عليه — ويكتفى بأن يربض ويتربص له وأن يلاحظه وهو يتلوى من الألم. ويدرك الفار أن الشك قد انقطع وإن كان حر ما لقى منه لا يزال شديداً فيتنهد ويقول «ياحفيظ .. أعوذ بالله ... على وجه من أصبحت فى يومى المنحوس هذا ياترى ... على كل حال الحمد لله .. قدر ولطف .. وترى أين ذهب هذا الوحش الضارى .. ياحفيظ .. ياحفيظ .. اللهم استرنا ... اللهم الآن أن أذهب إلى جحرى فانه على ضيقه خير ألف مرة من ميدان هذه الغرفة التى لا آمن أن يثب على فيها قط آخر .. والعياذ بالله» ويتوكل المسكين على الله ويقول «هيه .. ياممين ويروح يجر رجلاً بعد رجل؛ وذيله مسحوب وراءه على الأرض؛ ولا تبقى له قدرة على التلفت من فرط الأعياء ومن كثرة ما نزف منه من الدم القانى فيمضى إلى الجحر وهو لا ينظر لا إلى اليمين ولا إلى الشمال ولا قدامه ولا خلفه؛ حتى إذا قارب الجحر وانتعشت نفسه قليلاً وعظم أمله فى النجاة والسلامة وطول العمر وهم بوثبة أخيرة إلى حيث لا تدركه القطط ولا تستطيع أن تتبعه، إذا بالقط المتربص على ظهره، ومخالبه فى لحمه الطرى، فيدرك الفار اليأس ويستسلم ويقول فى سره وهو يؤكل عسى الله أن يعوضنى يوم النشور داراً أخرى لا قطط فيها .. ويلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يحلم بجنة الفيران

والقطط تولد عمياء مطبقة الأجفان فيدركنا العطف عليها وترق قلوبنا لها فنعنى بها ونتعهدها ونسقيها اللبن الذى هو لطعامنا، ونبرها ونسرها سنة بعد سنة، ونفرح بها ونعجب بمنظرها ونباهى الجيران، ثم يتفق أن نخرج يوماً وأن نوصد الأبواب ونحن لا ندرى أن القط فى إحدى الغرف ونغيب شيئاً ثم نعود إلى البيت ويدخل أحدنا حجرة النوم ليخلع ثيابه فيغلق الباب وراءه كعادته وإذا بالقط على السرير يتحفز للوثوب عليه وتمزيق لحمه — ما فى ذلك شك — فكأنه ليس أمام قط صغير وإنما هو

أمام نمر مفترس فيضطرب الرجل وتتخاخل ركبتاه ولا يعود يعرف أين الباب، والقط يعوء بل يعوى ويتوثب كالمجنون وقد نسى كل ما كان من سابق النعمة ولم يبق له هم إلا الخروج من الغرفة أو افتراس هذا الذى دخلها عليه وإن كان سيده وصاحب الفضل عليه

وقد لقيت من قطط الجيران الأمرين فما أحب القطط كما أسلفت . وما أكثر ما يحدث أن أنسى نافذة مفتوحة أو باباً مواربا فيدخل القط ويمضى إلى أوانى الطعام ويكشف عنها الغطاء — أى والله ولو كانت من النحاس الثقيل — ويلتهم كل ما بقى .... وقد كان لى جيران ما رأيتهم قط ينامون إلا بعد أن يغلقوا الأبواب والنوافذ جميعاً . وكنت أضحك إذ أسمع رب بيتهم يصيح فى الليل — والصوت فى الليل يسرى — « يا حنيفة .. هل أغلقت باب المطبخ؟ » فتصيح حنيفة من مرقدها والنوم يغالبها : « أيوه ياسيدى ... » فلا يقتنع ويخشى أن يكون الكسل قد أغراها بالكذب فيقول « يحسن أن تقومى وتستوثقى » وبعد قليل أسمعه يؤنبها ويقول لها « ألم أقل لك .. هذه النافذة لم تكن محكمة الأيصاد ... وهذا الباب ... انظرى ... لو دفعه إنسان بيده لا نفتح » فتحلف أنها أوصدت كل الأبواب والنوافذ فيقول « لا يا بنتى . . . دورى قبل النوم على كل الأبواب وكل نافذة وامتحنى كل منفذ بيدك لتتحققى » وكنت أعجب لهذا التفزع وأسأل نفسى عما يخيفه وهو فى عمارة لها بواب لا ينام إلا بعد أن يدخل كل السكان ثم يغلق بابها بالمفتاح ويضمه — أعنى المفتاح لا الباب — فى جيبه . فاذا تأخر أحد السكان احتاج أن يدق ويقرع الباب .. ثم زال عجبى لما بلوت قطط الجيران .. وأيقنت أنه لا يخاف اللصوص وإنما يخاف القطط .. وله العذر

والعامة تعتقد أن للقط سبع أرواح وما أظنهم إلا صدقوا، ومن كان يشك فى ذلك فليتأمل كيف يسقط القط من فوق السطح العالى فلا يزيد على أن ينظر يمنة ويسرة — فان فى القط تحرزاً شديداً — ثم ينهض ويمضى كأنما كان قد انحدر على بساط كهربائى . وتضربه بالحجر فلا يهبضه بل يرتد عنه . وهو مثال الفردية الصارخة والأثرة المجسدة . وما رأيت قطتين اتفقتا قط، وما اجتمع قطان فى مكان إلا تحفزاً للقتال فترى كلا منهما قد رفع ذيله وقوس ظهره وراح يجس الآخر بعينه وهو يزوم ويقول : « واووووووو » ويدور حوله ليغافله وينشب فيه أظفاره . والقطة هى الدابة الوحيدة التى تأكل صغارها فتأمل ذلك . ومن كان يعرف أن حيواناً مستأنساً آخر يفعل ذلك فليخبرنى فان العلم بهذا ينقصنى

ومن غرور القط أنه يعتقد أن ريقه ترياق ، فتراه يضطجع على جنبه ويلوى عنقه ويقبل على شعره بلسانه يلحسه ولا يخجل أن يستحم على هذا النحو أمام الناس ، بل لعله يباهى بذلك ويفخر قبحه الله ؛ وهو مفطور على الغدر والخيانة فلا أمان له ولا اطمئنان منه لأحد من الخلق ولا لشىء من الأشياء فهو لهذا سىء الظن ، حتى إنك لتراه إذا صار على رف أو لوح من الخشب يخطو كأنما هو يمشى على الجمر فيضع كفاً وينتظر ويخيل إليك من وقفته أنه يختبر المواطىء بكفه ويقدر مبلغ ثباتها وقد رنها على احتمال ثقله . ثم يمد يده الأخرى وينتظر شيئاً زيادة فى الاستيثاق ومبالغة فى الحذر ولا يجد ما يبعثه على الشك ، ومع ذلك يظل يتريث حتى تزهق روحى وأنا أنظر اليه . وإذا رابه شىء رد يده وسحبها من موضعها بسرعة وخفة ؛ ولو كان الانجليز قد خلقوا قبل القطط وسبقوها إلى الدنيا والحياة لقلت إن القطط أخذت ذلك منهم وقلدتهم فيه فانهم مثلها يقدمون على الشىء متحرزين ، ويخطون خطوة ثم يقفون ينظرون ما يكون ، فاذا جرت الأمور على غير مايحبون أو يتوقعون ارتدوا بخفة وبسرعة وإلا تقلوا رجلاً أخرى وهكذا ، فيظهر أنهم هم الذين يتقيلون القطط ويحاكونهم فى هذا والله أعلم

ولم يسرنى قط وجود قطة فى بيتى إلا مرة واحدة ، وكان قطا ملعونا لا يزال كلما أوينا إلى مضاجعنا يتسلل — لا أدرى من أين — إلى المطبخ ويرفع كل غطاء عن كل وعاء ويقلب كل صحن ويروح يعبث بما فى المكان . وليست تقمتى عليه من أجل ما يسرق فقلما يجد شيئاً فى المطبخ لأن عادتنا أن نأكل كل شىء ولا نبقى شيئاً قبل أن ننام ، فلا تبيت الأوعية والصحون إلا فارغة نظيفة ، والحمد لله الذى لا يحمد على المكروه سواه . وإنما نقمتى عليه من أجل الضجة المزعجة التى يحدثها والصحون والأطباق التى يكسرها فنهب مذعورين من فرط الضوضاء ونذهب نندو إلى المطبخ عسى أن ندرك شيئاً قبل أن يتحطم ، وإذا بالقط اللعين يثب من الرف حين يرانا إلى النافذة دفعة واحدة . وأقسم أن